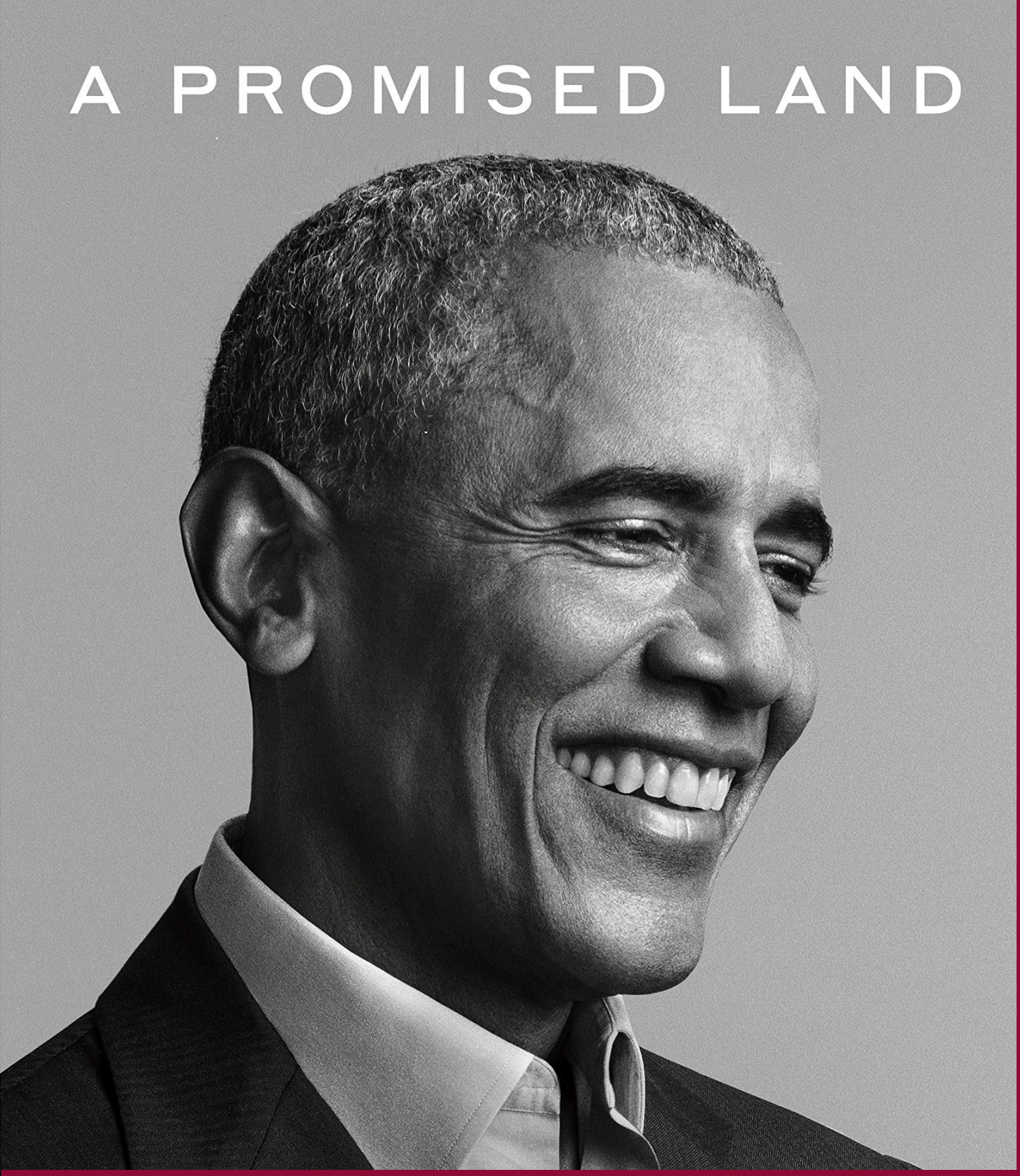

تأملات في رواية أوباما حول أمريكا والشرق الأوسط: لا "أرض ميعاد" للعرب

العربي صديقي

٣٠ ديسمبر ٢٠٢٠

رأي

الشرق
للأبحاث الاستراتيجية
AL SHARQ
STRATEGIC
RESEARCH

للروايات أهمية أكبيرة في السياسة، وتميل روايات قادة الدول القوية إلى تعزيز سيادتها دوليًا. ومن المرجَّح أن يحمل الإسهام الأخير لباراك أوباما في المذكرات الرئاسية الأمريكية أهميةً تتجاوز مقياس الصدق والزيف الذي اعتدنا استخدامه عند التعامل مع تصريحات الرئيس الحالي دونالد ترامب وبياناته وتغريداته، والتي يُمكن أن ترقى إلى اعتبارها «أخبارًا مزيفةً». ومن المؤكَّد أن القيمة التجارية للكتاب الذي تزيد صفحاته عن 700 صفحة مذهلةٌ تزيد عن عشرات ملايين الدولارات ، جنبًا إلى جنب مع مذكرات زوجته ميشيل أوباما التي صدرت العالم الماضي وللتي عنونتها ب»وأصبحت».[1] (ليصبح آل أوباما علامةً تجاريةً مثل -أو على خلاف- آل كلينتون من قبلهم). لكن بعيدًا عن الأهمية الاقتصادية لكتاب «أرض الميعاد»[2]، فإنه يحمل أهميةً تعتمد على القصة التي يرويها الرئيس الأمريكي الرابع والأربعون، بما في ذلك ما تولِّد خلال فترته من جدل. فما الذي يرويه أوباما إذن عن حياته السياسية، وعن عالم أمريكا وسياساتها في العالم، وخاصةً في الشرق الأوسط؟

(إعادة) بناء «شرق أوسط» تابع لأمريكا

لقد أصبحت سياسات رؤساء الولايات المتحدة -وخاصةً أولئك الذين حكموا لولايتَيْن مثل باراك أوباما وجورج دبليو بوش من قبله- جزءًا من «بنية» علاقات القوة غير المتكافئة، وإنعاش (أو عدم إنعاش) التعاملات مع الحكَّام الديكتاتوريين، والمواقف تجاه الشعوب العربية. وفي الواقع، فلقد أصبحت الروايات نفسها جزءً من السياسة؛ لأن السلطة والمعرفة تتشابكان باستمرار، وتعمل هذه الروايات على تبرير وتفسير وكذا الدفاع عن استخدام (أو إساءة استخدام) الولايات المتحدة للقوة الاقتصادية والعسكرية والدبلوماسية. حيث تقوم القوة المهيمنة عالميًا -التي تشمل شبكة معقَّدة ومتشابكة من الفواعل والمؤسسات ووجهات النظر يجمعها معًا ما يطلق عليه أوباما «الفكرة الأمريكية»- بتقديم نفسها للعالم جزئيًا من خلال رؤسائها السابقين. هناك سببٌ مهمٌّ يجعل الجماهير العربية والشرق أوسطية متشوقةً بشكلٍ خاصٍّ لوجهة نظر باراك أوباما الرسمية حول الدوافع والجدالات المتعلِّقة بفترة رئاسته، نظراً لاندلاع ثورات الربيع العربي في فترة رئاسته، وهذا سبب كافٍ لإثارة فضول القرَّاء. وبينما يصرُّ الرئيس المنتخب جو بايدن -الذي شغل منصب نائب الرئيس في إدارة أوباما- على أن رئاسته لن تكون «ولاية ثالثة لأوباما»[3]، يمكن أن تقدِّم رواية الرئيس الأمريكي الرابع والأربعين بعض الأدلَّة حول مواقف بايدن والمسارات التي يمكن أن يسلكها في الوقت الحالي. وبشكل عام، يبدو أن أوباما يضعه في مدرسة «قواعد لعب واشنطن»[4]، ويرى أنه أحد رجال واشنطن المخضرمين ممَّن يتمتعون بخبرةٍ واسعةٍ في رئاسة لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ. فيما يتعلَّق بالشرق الأوسط، يقدِّم أوباما عددًا من التوصيفات البالية (الإسلاميون المهووسون بالشريعة[5]، والشباب العنيفون مغسولو الدماغ[6]) والروايات المألوفة (القلق الطائفي[7]، ومراجل عدم الاستقرار) في تسجيله للفترة التي قضاها في الرئاسة حتى ربيع عام 2012 قرب نهاية ولايته الأولى.

هناك سببٌ مهمٌّ يجعل الجماهير العربية والشرق أوسطية متشوقةً بشكلٍ خاصٍّ لوجهة نظر باراك أوباما الرسمية حول الدوافع والجدالات المتعلّقة بفترة رئاسته، نظراً لاندلاع ثورات الربيع العربي في فترة رئاسته، وهذا سبب كافٍ لإثارة فضول القرّاء. وبينما يصرُّ الرئيس المنتخب جو بايدن -الذي شغل منصب نائب الرئيس في إدارة أوباما- على أن رئاسته لن تكون «ولاية ثالثة لأوباما» ، يمكن أن تقدّم رواية الرئيس الأمريكي الرابع والأربعين بعض الأدلّة حول مواقف بايدن والمسارات التي يمكن أن يسلكها في الوقت الحالي

إن محتوى الكتاب مليء بالايحائات، وكذلك شكله. وينهي أوباما الجزء الأول من مذكراته الرئاسية (من المنتظر إصدار جزء ثانٍ) بالحديث عن مقتل أسامة بن لادن. ففي الفصل الختامي السابع والعشرين، يروي بشكل دراماتيكي التآزر الاستخباراتي العسكري الدبلوماسي، الذي مثَّل له تسلسلًا عاطفيًا مشوبًا بتوتُّر ثُوج بـ «تحييد» هدف (في عملية حملت الاسم الحركي «جيرانيمو»)[8] حيَّر على مدار عشر سنواتٍ أقوى دولة في العالم بأفضل عتادها وأشجع رجالها. ويتحدَّث أوباما عن الهبوط غير المستقر للطائرة المروحية بعد أن تمَّ «تقديم بن لادن للعدالة» وسط «صيحات مسموعة» من الحاضرين من فريق الأمن القومي وصرخة القائد العام: «لقد نلنا منه»[9]. تذكِّرنا هذه النهاية السينمائية بالفيلم الذي أنتجته هوليوود للحديث عن هذه العملية باسم 'ثلاثون دقيقة بعد منتصف الليل (Zero Dark Thirty)'- لكن ربما لن يعرف أيُّ قارئ مدى واقعية هذه الأحداث بالضبط[10]. وبهذا يربط أوباما الخيط المارَّ عبر كامل الرواية حول المهمات والنجاحات والإخفاقات التي اتَّسم بها بأداء أقوى آلة عسكرية على وجه الأرض: القوات المسلحة الأمريكية.

لا يبدو أن الرئيس الذي أطلق حملة انتخابية منددّة بـ «الحرب الغبية» لجورج دبليو بوش في العراق يحمل تقديرًا وتمجيدًا أقلَّ من سابقه للقوات المسلحة الأمريكية، بحنكتها التكنولوجية والتنظيمية واللوجستية وتعاونها: «وهو ما يقوم به الجيش الأمريكي بشكلٍ أفضل من أيِّ منظمة أخرى على وجه الأرض»[11]. ولا يبدو أنه عازفٌ عن النزعة العسكرية الأمريكية في السياسة الخارجية (كما يتضح في «الاستخدام الحكيم للقوة الأمريكية»[12])، أو في الأشكال المحليَّة للإشادة بالجنود لكسب 'النقاط الاجتماعية' (مثل زيارة قدامى المحاربين المصابين في مستشفى والتر ريد)، وتقديم «الدعم» لعائلاتهم (بما في ذلك إحدى المبادرات الرئيسة لزوجته بصفتها السيدة الأولى باسم «توحيد القوى (Joining Forces)»[13]). وقد فوجئ بحصوله على جائزة نوبل، ورأى أنها «دعوة للعمل»[14]. وتعمل هذه الأنشطة على الحشد في خدمة ما يُقرأ على أنه تفوق أمريكي عسكري أولًا، ثم تأتي حقوق الإنسان والديمقراطية في المرتبة الثانية.

لطالما عانى أوباما من التشكيك في «أصوله» (نظرية المؤامرة حول مكان ولادة أوباما المعروفة باسم birtherism[15]، وهي رواية يشكّك من خلالها دونالد ترامب في حقيقة ولادة أوباما في هاواي)، والاتهامات بأنه غير وطنيٍّ (أزمة القس جيريمياه رايت خلال الحملة الانتخابية عام 2008، والتي نأى خلالها بنفسه عن الراعي السابق للكنيسة التي ينتمي إليها[16])، و'تساهله' مع الإرهاب (المحاولة الفاشلة لإغلاق غوانتانامو[17]). يبدو الأمر كما لو أن هذا الرئيس الأسود يسعى إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح، ولا شيء غير ذلك. أنا لستُ أقلَّ عنفًا من قائمة قادة

لطالما عانى أوباما من التشكيك في «أصوله» (نظرية المؤامرة حول مكان ولادة أوباما المعروفة باسم birtherism، وهي رواية يشكّك من خلالها دونالد ترامب في حقيقة ولادة أوباما في هاواي)، والاتهامات بأنه غير وطنيٍّ (أزمة القس جيريمياه رايت خلال الحملة الانتخابية عام 2008، والتي نأى خلالها بنفسه عن الراعي السابق للكنيسة التي ينتمي إليها)، و'تساهله' مع الإرهاب (المحاولة الفاشلة لإغلاق غوانتانامو). يبدو الأمر كما لو أن هذا الرئيس الأسود يسعى إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح، ولا شيء غير ذلك. أنا لستُ أقلَّ عنفًا من قائمة قادة المؤسسة البيض الذين جاءوا قبلي، ولا أنظر إلى الشرق الأوسط على أنه «مكان مضطرب» بقدرٍ أقلَّ منهم، على حدّ تعبير إدوارد سعيد

المؤسسة البيض الذين جاءوا قبلي، ولا أنظر إلى الشرق الأوسط على أنه «مكان مضطرب» بقدرٍ أقلَّ منهم، على حدِّ تعبير إدوارد سعيد. في الواقع، يستخدم أوباما عددًا من العبارات النمطية لوصف المنطقة: «مخيفة لكن يمكن السيطرة عليها» قبل أحداث 11 سبتمبر/أيلول[18]؛ و«الخلل في الشرق الأوسط»[19]؛ والتساؤل عن «حرب جديدة في الشرق الأوسط»[20]؛ والتذرع بـ «مشاكل الشرق الأوسط»[21]؛ والتأمل في مشارف انتفاضات عام 2011، «حيث من المرجَّح أن تقع الأزمة الكبيرة التالية في الشرق الأوسط»[22]. ومن ثَمَّ فإنه نادرًا ما يخفق في الرقي إلى توقعات الاستشراق والمستشرقين.

المثالية في مقابل الواقع

يحاول أوباما تصوير نفسه على أنه حامي ما أسماه «الفكرة الأمريكية»: «ما كانت عليه البلاد وما يمكن أن تصير إليه» جنبًا إلى جنب «فكرة أن أمريكا هي أعظم دولة على وجه الأرض»[23]. هذه الاستثنائية الأمريكية -وهي شكل معتدل تقريبًا من فكرة «القدر المتجلي» في القرن التاسع عشر، والمشبعة بأيديولوجيات الإبادة الجماعية وممارساتها تاريخيًّا- استمرت دون انقطاع تقريبًا بين رؤساء الولايات المتحدة. وبالنسبة إلى أوباما، يبدو أن الفكرة الأمريكية أو «فكرة أمريكا» مدفوعة «بالعزيمة الفردية» التي تنتج تطلعاتٍ جماعيةً ونجاحاتٍ تشمل مزيجًا من الديمقراطية والحرية وتكافؤ الفرص. لكن من المواضيع المتكررة في الكتاب كيفية تعاطي أوباما مع حقائق القيادة الأمريكية وتوتراتها ومقايضاتها، بحيث تنظم الرئاسة مثاليته، وتحقنه وسياساته بجرعة صحيَّة من «الواقعية».

ربما لا يخطر ببال القرَّاء الذين يتعرفون إلى أوباما للمرة الأولى عبر صفحات الكتاب أنه كثيرًا ما يتمُّ وصف ولايتيه بأنهما تجلياتٌ لإخفاق السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وقد يكون هذا هو السبب الذي دفعه لسرد أدق تفاصيل معاركه الداخلية في معظم كتابه: قانون الانتعاش وإعادة الاستثمار الأمريكي وعمليات الإنقاذ التي يدَّعي أنها أنقذت الاقتصاد الأمريكي بأسلوب كينيز بعد ما ورثه من ركود، وقانون الرعاية الصحيَّة التقدُّمي نسبيًّا الذي أطلق عليه معارضوه «أوباما كير (Obamacare)»، و«قانون التنمية والإغاثة والتعليم للقاصرين الأجانب (DREAM)» لإضفاء الطابع الرسمي على وضع المهاجرين غير المسجلين، وهو مشروع قانون لم يتجاوز مجلس الشيوخ. لقد تنافس الديمقراطيون تنافسًا لا نهائيًّا مع الجمهوريين لتحويل عبارة «نعم نستطيع» من شعار حملة إلى القليل من التحسين المادي في حياة الأمريكيين. ويتضمَّن المعنى الضمني بالطبع تناقضًا ذاتيًّا مع خليفته

في الواقع، لقد قام الأستاذ السابق بكلية الحقوق بجامعة شيكاغو بعد وصوله الهادئ إلى الرئاسة من خلال العديد من الألعاب البهلوانية القانونية «بالحفاظ على ثلاث سياساتٍ رئيسة: الترحيل، واللجان العسكرية، والاحتجاز إلى أجل غير مسمًّى»، والتي أثارت انتقاداتٍ لاذعةً منذ سنوات بوش لانتهاكها لحقوق الإنسان

دونالد ترامب و»التصاعد الفعلي في الشعبوية داخل الحزب الجمهوري»[24] وقاعدته، والذي بشَّر به صعود حركة حزب الشاي وغير المؤهلين من أمثال سارة باليـن المرشحة لمنصب نائب الرئيس في حملة المرشح الرئاسي جون ماكين عام 2008، التي عملت لاحقًا معلقةً في قناة فوكس نيوز.

كما شهدت إدارة أوباما العديد من المستجدات والأشياء التي تقع لأول مرة: أول رئيس أمريكي من أصل أفريقي ومن أب مسلم للولايات المتحدة، ومجموعة من الشباب من خارج واشنطن يديرون البيت الأبيض، ناهيك عن الاحتجاجات والثورات التي تدعو إلى التغيير الديمقراطي في العالم العربي. لكن رواية أوباما تؤكِّد على الكليشيه القائل بأنه كلما زاد تغيُّر الأشياء زاد بقاؤها على حالها.

سياسة عسكرية سافرة

من المفارقات المثيرة للاهتمام أن أوباما الحائز على جائزة نوبل للسلام لم يوجِّه السياسة الخارجية الأمريكية في مسارٍ سلميٍّ. بل يمثل تبرير النزعة العسكرية الأمريكية والدفاع عنها أحد المواضيع الواضحة في الكتاب، خاصةً فيما يتعلَّق بالشرق الأوسط، حيث يتمُّ شن الحروب 'الصحيحة' وتنفيذ العمليات «الحكيمة». في الحقيقة، إننا نرى تعظيمًا للجيش الأمريكي، مما يُسهم في النزعة العسكرية المفرطة للسياسة الخارجية الأمريكية، مُعزَّزة بما ومُعزِّزة لما يقول البعض بأنه إضفاءٌ للطابع الروتيني على النزعة العسكرية حتى «داخل البلاد»[25]. وبالنسبة إلى الشرق الأوسط، يبدو أن هذه الثقافة الراسخة لصناعة الحرب ترقى إلى مستوى وجهة نظرٍ مفادها أن الجنود وأفراد الأمن لا يخطئون في الغالب (يمثل عفو ترامب الأخير عن مرتكبي مذبحة عام 2007 في العراق من شركة بلاك ووتر[26] مثالًا حظي بتغطية إعلامية واسعة لإضفاء الطابع المؤسسي على إفلات العسكريين من العقاب، وإن كان ذلك يثير الكثير من الضجَّة). وحتى لو اختلطت الجغرافيا لدى القادة العسكريين دعاة الحرب (العراق بدلًا من أفغانستان وفقًا لأوباما)، يظل الجنود رمزًا لـ 'الخدمة' غير المحدودة والعطاء والتضحية تحت مسمَّى المُثُل الأمريكية. فحتى فيما يتعلَّق بمعارضة حرب بوش في العراق كتب أوباما: «لطالما حرصتُ على التمييز بين آرائي حول الحرب وتقدير تضحيات جنودنا وعائلاتهم»[27].

في حقيقة الأمر، كان أوباما متحمسًا للغاية للقتل فيما سمَّاه بـ «الحرب ضد القاعدة»، ولم تؤدِّ إعادة تسمية «الحرب على الإرهاب» التي قادها بوش إلَّا إلى تحسين المظاهر. ويدَّعي أوباما أنه كان شديد الإصرار على إلقاء القبض على (قتل!) بن لادن حتى يقضي على وهم الإرهابيين الخارقين، بحيث يمكن أن يرى الأمريكيون والآخرون حول العالم أن «هؤلاء الإرهابيين ليسوا سوى عصابة من القتلة المشوشين والأشرار، وأنهم مجرمون يمكن أسْرُهم أو محاكمتهم أو

سجنهم أو قتلهم»[28]. ولم تجد هذه المحاولة لتشويه سُمعة بعبع الإرهابيين في المخيلة العامَّة -إذا جاز التعبير- نفعًا يُذكَر فيما يتعلَّق بنزع الطابع العسكري للسياسة الخارجية الأمريكية أو تخفيف حدَّة ما يعتبرها النقَّاد تدخلاتٍ عسكرية إمبريالية جديدة. في الحقيقة، لقد اختبأ أوباما تحت غطاء الشرعية ليصرح شخصيًّا بقتل الأمريكيين للإرهابيين المشتبه بهم، وخاطر على منحدرٍ زلقٍ محاطٍ بالسريَّة مع القليل من الرقابة. كما أشرف شخصيًّا على «قائمة القتل»، حيث كان يصدر الأمر بإطلاق النار (توجيه الطائرات المُسيَّرة)، وَفق ما كشفه تحقيقٌ أجرته صحيفة نيويورك تايمز. وجاء هذا التفويض بعد عملية «ترشيح» قام فيها مستشاروه العسكريون ومستشارو مكافحة الإرهاب بتحديد أسماء من يجب قتلهم تاليًا. إذن، لم يتردَّد الرئيس فيما أصبح لاحقًا عنفًا أمريكيًّا لا متناهيًا ومُقلِلًا من قيمته في مكافحة الإرهاب (على سبيل المثال، التقليل من عدد الضحايا المدنيين عن العدد الفعلي) في الولايات المتحدة والشرق الأوسط. في الواقع، لقد قام الأستاذ السابق بكلية الحقوق بجامعة شيكاغو بعد وصوله الهادئ إلى الرئاسة من خلال العديد من الألعاب البهلوانية القانونية «بالحفاظ على ثلاث سياساتٍ رئيسة: الترحيل، واللجان العسكرية، والاحتجاز إلى أجل غير مسمَّى»، والتي أثارت انتقاداتٍ لاذعةً منذ سنوات بوش لانتهاكها لحقوق الإنسان[29]. وشمل ذلك بالطبع قتل المواطنين الأمريكيين أنور العولقي «الملهم الروحي للقاعدة» وسمير خان في سبتمبر/ أيلول 2011. ولا يقدِّم أوباما اعتذارًا للقرَّاء عن حرب الطائرات المُسيَّرة سيئة السُّمعة التي شنَّها؛ فبدءًا من اليوم الثالث لتنصيبه، أصدر أوباما أوامرَ بشنِّ 542 ضربةً بطائرة مسيرة خلال فترة بقائه في البيت الأبيض، وهو ما أسفر عن مقتل «ما يُقدَّر بـ 3797 شخصًا» فيما أصبح تكتيكًا مميزًا لفترة رئاسته[30]. وحصل أوباما على حصته العادلة من عدد «الوفيات المباشرة» المقدَّرة في نوفمبر/ تشرين الثاني، التي تراوحت بين 480000 و5070009 شخص في الحروب التي قادتها الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق وباكستان بعد 11 سبتمبر/ أيلول (وهو رقم يستثني الضحايا في سوريا على سبيل المثال)[31]، وجميعها تقديرات يُحتمَل أنها متحفظة. وكيف يتحدَّث عن هذا التزايد في وتيرة القتل طول فترة رئاسته؟ يبدو أن شبانًا مثل القراصنة الصوماليين الثلاثة الذين قتلتهم القوات الأمريكية عند اختطاف الكابتن ريتشارد فيليبس على متن سفينته في عام 2009 قد ألهموا مشاعر متباينة تجاه أوباما. لقد كان يعلم -وفقًا لما كتب- أنه في جميع أنحاء العالم الإسلامي يوجد «الملايين» من الرجال الذين «ضُللوا وأُعيقوا بسبب اليأس والجهل وأحلام المجد الديني»، وهو ما دفعهم إلى العنف. وهنا تطلُّ المسيانية الأمريكية برأسها، فيعترف: «لقد أردتُ أن أنقذهم بطريقة ما» من خلال التعليم أو العمل. إلَّا أن معطيات الواقع تقف في طريق إنقاذهم: «العالم الذي كانوا جزءًا منه والآلات التي كنت أقودها، كثيرًا ما جعلاني أقتلهم بدلًا من ذلك»[32]. إنه يلقي باللَّوم على «عالمهم»، وكذلك الحقيقة المؤسفة (بالنسبة إليهم!) المتمثلة في أنه يقود «آلات» لا يمكن أن تكون في الجانب نفسِه مع الشباب الصومالي أو العراقي أو الأفغاني صعب المراس. ومن خلال مثل هذه الثنائية، يبدو أن أوباما يفصل بين أمراض العرب أو المسلمين وبين تدخل أمريكا في المشاكل المتعدِّدة المتمثلة في الفقر والتهميش والاستبداد التي ابتليت بها منطقة الشرق الأوسط. لذلك فإن هذا يصيبنا بالذهول: هل ذنبهم أن عليه أن يقتلهم؟

قد ينظر القرَّاء العرب (وجميع القرَّاء) -وهم محقون في ذلك- إلى انتخاب بايدن على أنه خروجٌ منعشٌ من أساليب ترامب وسياساته الجافة والشوفينية، لكن ربما ينبغي عليهم أن يتخلصوا من فكرة احتمالية قيام نائب الرئيس السابق في إدارة أوباما بنزع الطابع العسكري عن السياسة الخارجية الأمريكية

ليس من المفاجئ أن تظلَّ السياسة العسكرية الأمريكية عمودًا لا يمكن المساس به لسياستها الخارجية وكذلك تقوم عليه قوميتها (أين هي «المدنية» بينما تحتلُّ القوة العسكرية مركز الصدارة؟). لكن لا يجب أن يغيب عن القرَّاء والمراقبين في الشرق الوسط تأكيدات أوباما وتبريراته الجريئة للسياسة العسكرية الأمريكية التي أصبحت أكثر مباشرةً وأكثر شخصنةً وأكثر كفاءةً خلال رئاسته. قد ينظر القرَّاء العرب (وجميع القرَّاء) -وهم محقون في ذلك- إلى انتخاب بايدن على أنه خروجٌ منعشٌ من أساليب ترامب وسياساته الجافة والشوفينية، لكن ربما ينبغي عليهم أن يتخلصوا من فكرة احتمالية قيام نائب الرئيس السابق في إدارة أوباما بنزع الطابع العسكري عن السياسة الخارجية الأمريكية.

مع وجود 'قائمة القتل'، والهجمات واسعة النطاق بالطائرات المُسيَّرة، وحتى قصة 'النَّيْل من' أسامة بن لادن، فإن ادعاء أوباما بأنه كان مكبلًا في الحرب على الإرهاب تبدوا غير مقنعة. في الواقع، تمثل الولايات المتحدة جزءًا مهمًّا -وربما متسببًا- في الكثير من أعمال العنف في الشرق الأوسط، ليس فقط من خلال مجمعها الصناعي العسكري، ولكن أيضًا من خلال الاستعارات الثقافية التي كرَّسها أوباما خلفًا لبوش الذي وصف الحرب على الإرهاب في البداية بأنها 'حملة صليبية'. ومَن ينسى عندما وصف الرئيس أوباما في خطابه عن حالة الاتحاد لعام 2016 «التحوُّل» في الشرق الأوسط بأنه «متجذر في صراعاتٍ تعود إلى آلاف السنين»[33]؟ في الواقع، لقد انتهى الأمر بأوباما بتوسيع نطاق الحرب على الإرهاب مع التحالف الدولي لهزيمة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) الذي انطلق عام 2014. صحيح أن التحالف ضمَّ هذه المرة العديد من المشاركين العرب، لكن النقطة المهمَّة هنا هي أنه منذ الحرب الباردة لم تخلُ الصراعات العنيفة المستعرة داخل الشرق الأوسط من بصماتٍ أمريكية واضحة ويمكن تتبُّعها. فمن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، إلى سلسلة حروب الخليج والعراق، إلى الحروب المتتالية على الإرهاب، نجد بصمةً للولايات المتحدة في كل صراعٍ عنيفٍ في المنطقة، سواء عبر إشعال الفتيل أو التمويل بالأسلحة أو إلقاء القنابل أو بناء القواعد أو نشر الجنود أو إطلاق الطائرات المسيرة. لقد كان من المخادع في عام 2016 -تمامًا كما هو مخادع الآن- تصوير الشرق الأوسط كمنطقة عنيفة على الدوام تقع خارج نطاق اختصاص الولايات المتحدة الأمريكية ونفوذها.

الديكتاتورية والديمقراطية في العالم العربي

لقد تكشَّف جزء من السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ورفضته الجماهير الثائرة في انتفاضات 2011، وهو دعمها للأنظمة الديكتاتورية التي تخدم مصالح الولايات المتحدة. ولا يخجل أوباما من هذا الموضوع، فيتحدَّث عن «إقامة تحالفات مع الحكَّام المستبدين»[34] من أجل مكافحة الإرهاب وردع الأعداء وحماية النفط. إلَّا أنه أعرب عن احتقاره الصريح للديكتاتوريين العرب، مقرًّا بذرائعية دعم الولايات المتحدة للقادة المستبدين من الملك عبد

فيتحدَّث عن «إقامة تحالفات مع الحكَّام المستبدين» من أجل مكافحة الإرهاب وردع الأعداء وحماية النفط. إلَّا أنه أعرب عن احتقاره الصريح للديكتاتوريين العرب، مقزِّمًا بذرائعية دعم الولايات المتحدة للقادة المستبدين من الملك عبد الله، إلى علي عبد الله صالح، إلى حسني مبارك

الله، إلى علي عبد الله صالح، إلى حسني مبارك. لا تغيب التقارير التي تسلط الضوء على انتهاكات حقوق الإنسان عن انتباه رؤساء الولايات المتحدة، لكن «السعوديين سيقدمون نصيحة حاسمة» حول انفجارٍ وشيكٍ من شأنه أن يلحق الضرر بقاعدة بحرية أمريكية على سبيل المثال، وعندها «سيُضرب بتلك التقارير عرض الحائط»[35]. بكلماتٍ أخرى، لقد احتفظت الولايات المتحدة بهم بسبب مؤهلاتهم في مكافحة الإرهاب وتعزيز الاستقرار، وهي لعبة أتقنها الحكَّام المستبدون العرب جيدًا، خاصةً منذ بداية الحرب على الإرهاب.

يقترب موقف أوباما من الدكتاتوريين العرب من السخرية النفعية. فقد كان القادة في جميع أنحاء المنطقة -بمن فيهم العاهل الأردني الملك عبد الله- «يخشون من احتمالية اندلاع احتجاجاتٍ في بلادهم»، معبرين عن «توقعهم» (وإن كان ذلك من خلال «لغة أكثر رقيًا» من لغة العاهل السعودي) لقيام الولايات المتحدة بدعم «الاستقرار» (وكانت هذه رغبة «بيبي (نتنياهو)» أيضًا)[36] (كان للولايات المتحدة في نهاية المطاف التزاماتٌ تجاه انقلاب السيسي في مصر في عام 2013، ليس أقلها قبوله). وهو يعترف بأنه «سيستمر في العمل مع... 'النظام الاستبدادي الفاسد المتعفن'... الذي يتحكَّم في الحياة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا»[37]. ويدَّعي أوباما -متجردًا من أيِّ أوهام تحوُّلية مسيانية- أنه أراد على الأقل «تشجيع التقدُّم» نحو الديمقراطية في العالم العربي[38]. إلَّا أن الصور والعبارات التي يسردها حول العالم العربي تكتسب القدر الأكبر من 'الإنسانية' عندما يتعلَّق الأمر بالديكتاتوريين، وخاصةً حسني مبارك. فبينما تمسَّك مبارك بموقفه ورفض التنحي، سحبت الولايات المتحدة دعمَها له، ولكن ليس دون «تواصل عسكري عسكري» بين الولايات المتحدة والجيش المصري وأجهزة مخابراته، على حدِّ قول أوباما[39]. وفي نهاية المطاف، وقفت الولايات المتحدة إلى جانب متظاهري التحرير الذين «بدا أنهم شباب وعلمانيون بنسبٍ متفاوتة»[40]- قاصدًا على ما يبدو أنهم شكلوا عاملًا مكملًا ساذجًا. وفي الواقع، لا يخفي أوباما كثيرًا مخاوفه بشأن جماعة الإخوان المسلمين؛ فعلى الرغم من اعترافه بالمشاركة الحماسية للحركة في السياسة، كتب عن عدم ثقة القوى الإقليمية في الجماعة الإسلامية، وجمع بين «الفلسفة الأصولية للتنظيم التي تجعله غير موثوقٍ كوصيٍّ على التعدُّدية الديمقراطية» واحتمال تشكيلها لعقبة أمام علاقة الولايات المتحدة بمصر[41].

ومن الجدير بالذكر أن العناصر الإنسانية في رواياته لا تبدو محجوزةً للمتظاهرين والجماهير المهمَّشة (باستثناء الشابة التي تمَّ قتلها في الحركة الخضراء الإيرانية في العام السابق)، وإنما للحاكم المستبد المخلوع. حيث يبدو أوباما حزينًا على مبارك، العجوز الذي أطاحت به ثورة شعبية، فيقول: «تخيلته هناك، جالسًا في محيط مترف [في شرم الشيخ] وحيدًا بأفكاره، ويلقي ضوء خافت بظلاله على وجهه»[42]. وفي المقابل، لا يبدو أنه ينظر إلى 'الشعوب' العربية مطلقًا على أنهم بشر كاملون لديهم آمال ومخاوف وخيبات أمل وأحلام حقيقية يُمكن تسليط

وفي المقابل، لا يبدو أنه ينظر إلى 'الشعوب' العربية مطلقًا على أنهم بشر كاملون لديهم آمال ومخاوف وخيبات أمل وأحلام حقيقية يُمكن تسليط الضوء عليها في هذه الرواية الرئاسية. وفي كتاب أوباما، يبدو الأمر وكأن أيَّ وعدٍ بالديمقراطية في العالم العربي قد مات

الضوء عليها في هذه الرواية الرئاسية. وفي كتاب أوباما، يبدو الأمر وكأن أيَّ وعدٍ بالديمقراطية في العالم العربي قد مات. وكثيرًا ما يتلاقى الجانبان الشخصي والسياسي لأوباما في مختلف أنحاء المذكرات؛ فعندما قامت ابنته ماليا «بسؤالي عمَّا سأفعله بشأن النمور»[43]، دفعته إلى التحوُّل في روايته إلى حملته المحدَّدة والضعيفة في نهاية المطاف لتشريعات تغيُّر المناخ في مواجهة عرقلة الجمهوريين ومراوغات زعماء العالم الثالث في قمَّة كوبنهاغن. كما يستحضر معركة والدته مع السرطان، التي تضخَّمت بفعل ارتفاع فواتير الرعاية الصحيَّة في الملحمة الطويلة لقانون الرعاية الصحيَّة[44]. لكن هذه الصور التي تربط بين الرجل والرئيس تغيب عندما يتعلَّق الأمر بالعالم العربي. فخلال زيارته بوصفه مرشحًا رئاسيًّا إلى «منزل أجداد والده» في كينيا، حيث قابل بشكل متكرِّر «آلافًا... يهتفون باسمي»، خضع هو وزوجته لاختبار فيروس نقص المناعة البشرية لتهدئة مخاوف السكَّان المحليين وتشجيعهم على الكشف والعلاج[45]. كما أنه «لعب كرة القدم مع مجموعة من الأطفال المحليين» خلال زيارته للبرازيل[46]. لكن ألَا توجد تجربة موازية مع جماهير عربية أو أطفال عرب يراها جديرةً بالسرد؟ وهنا يجد المرء نفسه يتساءل: هل العرب أقلُّ إنسانيةً؟

حدود للقيادة الأمريكية؟

إذا كان أوباما يبدو غافلًا عن 'الشعوب' في العالم العربي، فإنه يبدو بالقدر ذاته مُبرئًا للولايات المتحدة من المسؤولية عن كل ما سار بشكل خاطئ في الشرق الأوسط. يُعزى الفشل في التوصل إلى خطة سلام بين إسرائيل وفلسطين في نهاية المطاف إلى عدم الجديَّة في محادثات السلام التي استضافها على مضضٍ بين نتنياهو وعباس ومبارك والملك عبد الله قبل الربيع العربي. حيث يتذكَّر «الطابع التمثيلي والافتقار للعزيمة» عند اجتماعهم في البيت الأبيض لإجراء مفاوضات[47]. وليس من المفاجئ وجود تعليقاتٍ مثل «لطالما ضيَّع القادة الفلسطينيون فرصَ السلام»[48] من كلا الجانبين، متمثلين في نتنياهو (يمكننا الشعور بغياب الدفء الشخصي تجاه هذا القائد) ومحمود عباس (الذي تمَّ تصويره إلى حدٍّ كبيرٍ على أنه منعدم الشخصية وفاسد). ومن المثير للاهتمام ادعاء أوباما أنه تعرض -على نحوٍ غير معهودٍ بالنسبة إلى رئيس أمريكي- لانتقاداتٍ بسبب «إعرابي عن قلقي تجاه الفلسطينيين العاديين»[49]. لكن بوصفه رجلًا أسودَ -على حدِّ صياغته- فإنه يحدِّد هويته (أخلاقيًّا وشخصيًّا) بناءً على قصص والدته له حول أهوال الهولوكوست، أو زيارة مع إيلي ويزل إلى معسكر بوشنفالد...إلخ. وكتب: «كنت أعتقد أن هناك رابطًا جوهريًّا بين تجارب السود واليهود، فهما يشتركان في التعرض للإقصاء والمعاناة»[50]. لكن في ظل دفاع الولايات المتحدة عن إسرائيل المحتلة والمستعمرة، فإن هذا الرابط الذي يرسمه تفوح منه رائحة أحادية الجانب. في الواقع، لقد تخلَّى أوباما عن التزامه بإقامة دولة فلسطينية، ويمكن تشبيه وجهة نظره بمنظرين ونشطاء سود آخرين، بما في ذلك أنجيلا ديفيس[51] وكورنيل ويست. فقد أعلن كلاهما علنًا -على حساب جزء من شخصيتهما العامَّة[52]- عن تضامنهما مع تحرُّر الفلسطينيين وحقوقهم، وحتى مع حركة مقاطعة إسرائيل.

وكتب: «كنت أعتقد أن هناك رابطًا جوهريًا بين تجارب السود واليهود، فهما يشتركان في التعرض للإقصاء والمعاناة». لكن في ظل دفاع الولايات المتحدة عن إسرائيل المحتلة والمستعمرة، فإن هذا الرابط الذي يرسمه تفوح منه رائحة أحادية الجانب. في الواقع، لقد تخلّى أوباما عن التزامه بإقامة دولة فلسطينية، ويمكن تشبيه وجهة نظره بمنظرين ونشطاء سود آخرين، بما في ذلك أنجيلا ديفيس وكورنيل ويست

كذلك تطرقت رواية أوباما عن إنجازاته في السياسة الخارجية لقصف الناتو لليبيا في الوقت الذي هدَّد فيه القذافي بارتكاب مذابح ضد المتظاهرين. وفي هذا الكتاب الأول من مذكراته نصل فقط إلى 'الانتصار' الأوليّ السريع فيما أطلق عليه ساخرًا: 'قيادة أمريكا من الخلف'، ويصرُّ على صحَّة قراره بشنِّ حملة عسكرية محدودة في الدولة الواقعة في شمال إفريقيا، والتي فشلت في تأمين البلاد من الفوضى، سواء من قِبل القوات الموالية للقذافي أو المناهضة له، ناهيك عن وفاة المبعوث الأمريكي إلى ليبيا كريستوفر ستيفنز.

لا يكشف حديث أوباما فقط عن منطقٍ اقتصاديٍّ لتقاسم الأعباء: كيف سعى إلى تقسيم المسؤوليات (العسكرية، والسياسية، والدبلوماسية) مع الأوروبيين، ولكن يكشف أيضًا كيف تؤثر التصنيفات واستطلاعات الرأي المحلية والصراعات الحزبية في اتخاذ قراره بشأن السياسة الخارجية. ويأتي هذا التشابك المعقَّد بالتأكيد مع أراضي الحكم الديمقراطي - على الرغم من أن عملية صنع القرار في السياسة الخارجية لا تزال غير ديمقراطية نسبيًا، وتتركَّز في أيدي الرئيس ومستشاريه. لكن من المهم أن يدرك الجمهور العربي تعقيدات السياسة المحلية والدولية طوال الوقت، حيث يلتزم كلُّ رئيسٍ للولايات المتحدة بالحفاظ بحماسٍ وحزمٍ على التفوق الأمريكي في العالم بطريقته الخاصة.

وفي جولة إلى شرق آسيا، حيث أعرب عن تقديره «لبقاء احترام القوة الأمريكية» لدى الشعوب والحكومات المستعمرة سابقًا، يتناول قصة نجاح، حيث يمكن اعتبار إقناع الدول بطرق الليبرالية الاقتصادية سرَّ الحفاظ على تفوق الولايات المتحدة بأكبر قدر ممكن من السلاسة، على حدِّ قوله. الرأسمالية هي المفتاح: «اتبعوا قيادتنا وحرروا اقتصاداتكم، ونأمل أن تشارك حكوماتكم وأنتم أيضًا في الازدهار الذي نحققه»[53]. قد يكون أوباما قد اتُّهِم بخيانة الاستثنائية الأمريكية والاعتذار عن أمريكا في جولته في برلين، لكنه يتبنَّاها ويدافع عن 'الفكرة الأمريكية' بطاقته القصوى، وغالبًا ما يكون ذلك عسكريًّا. فكل شيء آخر يأتي في المرتبة الثانية، بما في ذلك العلاقات مع روسيا وألمانيا وفرنسا، وبالطبع العالم العربي. ومع ذلك، تختلف خطوط ومسارات الحفاظ على الهيمنة الأمريكية في العالم، وتتأثَّر في نهاية المطاف بالرادار السياسي المحلي.

من السهل على أوباما أن يلقي باللَّوم على المصرفيين في أزمة الإسكان والركود، وأن يدعم قوانين مثل «دود-فرانك» لكي يبدو وكأنه يروِّض وول ستريت وسط الغضب الشعبي الأمريكي بعد كلفة 'الإنقاذ' المرهقة. لكن لماذا لا يمكنه توجيه النقد نفسه (الذي قد يُقرأ كخداعٍ) لشركات الأسلحة وجماعات الضغط وإدارة القواعد العسكرية الأمريكية من اليابان

إلى الخليج العربي؟ لقد اتضح أنه قد يكون هناك مُحرِّماتٌ في السياسة الدولية والسياسة الخارجية أكثر من السياسة الداخلية (نتذكَّر جميعًا الضجة حول كتاب جيمي كارتر «سلام لا تفرقة عنصرية»، الذي انتُقد لأنه منح الكثير من الإنصاف لمظالم الفلسطينيين). يمكن لأوباما محاولة أن ينأى بنفسِه عن الـ '1%' من خلال التعاطف مع كدح الطبقة الوسطى وأعباء ضرائبها، لكنه لا يستطيع أن ينأى بنفسِه عن الولايات المتحدة وموقعها في البنية الدولية للرأسمالية والقوة العسكرية على مستوى العالم. هذه الشبكة المعقَّدة من الهياكل التاريخية والثقافية والفكرية والأيديولوجية والعسكرية والاقتصادية للنظام العالمي (الفوضوي) التي يقودها ممثلو ووكلاء الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين- هي التي تمثل اللغز المتكرر للسياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط على وجه الخصوص. صحيح أن الأفكار والخطابات ('جرأة أمل' أوباما على حدِّ تعبيره) لها أهمية كبيرة، لكنها على الأرجح تعزِّز الأشكال الفكرية المادية أكثر مما تواجهها، خاصةً عندما يتبنَّاها الأقوياء. لا يمكن أن يكون الأمر كله متعلقًا بأوباما، لكن التسلسلات الهرمية (الولايات المتحدة في العالم) ليست ثابتةً أو لا مفرَّ منها.

ماذا لو... وما هو القادم؟

من اللافت للنظر أيضًا في الكتاب ما يُقرأ على أنه شبه إنكار لأوباما لجذوره الإسلامية. ففي خطابه الشهير بالقاهرة في عام 2009، تحدَّث بإيجاز شديد وبطريقة ملتوية عن وجود علاقة شخصية بالعالم الإسلامي، حيث قال: «أنا مسيحي، لكن والدي ينحدر من عائلة كينية تضمُّ أجيالًا من المسلمين»[54]. وعلى نحو مشابه تحدَّث في مذكراته -على سبيل المثال- عن «اسمه الذي يبدو مسلمًا»[55]. في حقيقة الأمر، إن اسم أوباما الأوسط (حسين) لا «يبدو مسلمًا»، وإنما هو اسم مسلم بلا منازع؛ فهو ليس مجرَّد اسم، بل هو اسم حفيد النبي محمَّد، وهو مألوف لدى المسلمين في كل مكان. وبالنسبة إلى عددٍ لا يُحصى من العرب والمسلمين، فإن أكثر ما يتذكَّرونه عن أوباما هو أصوله الإسلامية المجهولة تقريبًا، والتي تكاد لا تُذكَر في هذا الكتاب. وبعد سنواتٍ من رئاسته، فإن ما يلفت نظر القرَّاء هو ما يبدو تهربًا من هذا الجزء من نفسِه أو على الأقل عدم الاهتمام أو التكريم الثقافي الحضاري له. ما الذي يخفيه أوباما بالضبط؟ ما الذي يخاف منه لهذه الدرجة في ما يشبه الإنكار الفرويدي؟ يبدو أن أقوى رجلٍ على وجه الأرض يظهر بمظهر الضعيف في بعض الجوانب: يكاد يبدو «إمبراطورًا (رئيسًا) بلا ملابس». يرى الجميع بوضوحٍ ما يتردَّد أوباما في (أو لا يمكنه) الاعتراف به، على سبيل المجاز بالتأكيد. فبداية باسمه المسلم، مروراً بمشاكل الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط حتى في عهده، قد يكون ما لم يذكره أوباما في مذكراته لا يقل أهميةً عن ما يرويه صراحةً. ومن هنا يظل عنوان هذا الكتاب غامضًا: لمن تنتمي «أرض الميعاد»؟ ما الذي يسترجعه أوباما؟ وما هو نوع الاسترجاع الذي يبنيه أو يرويه؟ هل قدَّم للأمريكيين أرض الميعاد أم أخفق في ذلك؟ وماذا عن الآخرين في جميع أنحاء العالم، من العرب وغيرهم ومن جميع الأديان، ممَّن كانوا متحمسين في البداية لـ «الأمل» الذي مثَّله انتخابه رئيسًا لأمريكا؟ هناك نوع من البنائية يتخلَّل الكتاب، كما أن العالم الذي يتحدَّث عنه أوباما مبنيٌّ اجتماعيًّا حسب تجارب كاتبه، والذي يبدو أن جزءًا كبيرًا منه قد أُحيل إلى الصمت.

قد يتصور المرء وقوع سيناريوهاتٍ مختلفةٍ إلى حدٍّ ما خلال رئاسة أوباما: فبدلًا من التباهي بتمويل القبة الحديدية الإسرائيلية الشهيرة[56]، ماذا لو كان أوباما قد قرَّر -مُقرًّا «بنفوذ» لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك) في الضغط على الرؤساء والسياسيين الأمريكيين[57]- وقفَ المساعدة العسكرية لإسرائيل؟ ماذا لو كان أصرَّ على قيام دولة فلسطينية بدلًا من الاستسلام للطريق المسدود الذي وصل إليه نتنياهو وعباس والذي كان متوقعًا؟ ماذا لو لم يقم بفرض عقوباتٍ على انقلاب السيسي ضد أول رئيس منتخب لمصر (ونحن لم نسمع روايته عن هذه القصة بعدُ)؟ ماذا لو كان قدَّم مساعداتٍ عسكرية وتنموية لـ «حلفاء» الولايات المتحدة في المنطقة، أو باع الأسلحة الأمريكية لهم، بشرط إجراء إصلاحاتٍ حقيقية في مجال حقوق الإنسان والحكم الديمقراطي؟ ماذا لو كان نظر بجديَّة أكبر وبشكل أكثر استدامةً لمطالب الربيع العربي بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية؟

ليس المقصود بهذه الأسئلة أن تكون تمرينًا على التفكير الرغبوي، بل قد يكون من المهم طرحها أمام الجمهور العربي الذي ينبغي -بل يجب عليه- أن يدرك دائمًا أن «القيادة» الأمريكية (جنبًا إلى جنب التطلعات الاستعمارية والإمبريالية لفرنسا والمملكة المتحدة وروسيا...إلخ) متورطةٌ في صراعاته المستمرة منذ عقود مع الدكتاتورية والتبعية الاقتصادية/السياسية. إن كفاح الديكتاتوريين للتعامل مع الغضب والاضطراب المجتمعيَّيْن، اللذان تجليا بالشكل الأكبر في الربيع العربي، يضاهيه -وربما يُكمِّله- الأوجه العديدة للتدخلات الأمريكية. بالتأكيد هناك الكثير لم يتم الحديث عنه (على سبيل المثال، الدمار والخسائر البشرية الناتجة عن حرب الولايات المتحدة على الإرهاب في اليمن)، ولسنا ساذجين لدرجة أن نتوقَّع أن يكشف أوباما عن كل شيء. وعندما يصرُّ أوباما على أن الولايات المتحدة -على عكس ما يعتقده بعض الناس- «ليست مُحرك العرائس الأعظم الذي يمسك وحده بخيوط الدول التي يتعامل معها ويحركها وفقًا لهواه»[58]، فإنه لا يفصح عن الحقيقة بقدر ما يستخدم مغالطة رجل القش (نوع من المغالطات المنطقية). صحيح أن السياسة الدولية شديدة التعقيد؛ فحتى الديكتاتوريون العرب (ناهيك عن مجتمعاتهم وشعوبهم) لهم سلطتهم الخاصَّة، إلَّا أنه لا يمكن الإبقاء على الوضع الراهن أو محاولة استعادة «الاستقرار» و«النظام» من خلال إعادة تنظيم الديكتاتوريات أو تحديد «الخطوط الحمراء» فيما يثبت أنه تهديدات وهمية (مثل سوريا) بدون الولايات المتحدة.

ومع استعداد ترامب لمغادرة البيت الأبيض ازدادت المناقشات في واشنطن حول مدى استخدام الولايات المتحدة للقوة العسكرية في جميع أنحاء العالم، وخاصةً في الشرق الأوسط. حيث قدَّم ليون بانيتا -المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية ووزير الدفاع الثاني لأوباما- تحذيرًا مما وصفه بالانتقاد الشديد لسياسة الولايات المتحدة العسكرية. كما احتدم الجدال حول 'الحروب التي لا تنتهي' في واشنطن منذ شهور، مدفوعًا بوعد ترامب بعدم الاستمرار في 'الحروب التي لا تنتهي'. وتقدم مجموعة جديدة من المقالات لمؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات نغمةً شبه قومية متطرفة. ويعترف بانيتا أن «نشر» القوات الأمريكية يمثل خيار «الملاذ الأخير»، ولا يمكن اللجوء إليه على عجلٍ، لكنه يستطرد قائلًا إن «الانسحاب» أيضًا (سواءٌ كان قائمًا على المبادئ أو البراغماتية) يجب أن يخضع للتروي نفسِه، حيث إن «بعض عمليات الانسحاب يمكن أن تضرَّ بأمننا القومي» عند تنفيذها بسرعة وتعجل[59]. ويكتب محللٌ آخر أن الانسحاب من العراق

في عهد أوباما نَبَع من «اعتقاد جذاب ولكنه مُضلل بأن أمريكا قادرة على إعلان النصر والعودة لأراضيها، تاركةً خلف ظهرها الشرق الأوسط المثير للقلق». ويذكِّر القرَّاء بأن عدد القوات الأمريكية في الشرق الأوسط قد انخفض بالفعل بشكلٍ كبيرٍ في السنوات التي تلت أحداث 11 سبتمبر/ أيلول، قائلًا: «بحلول منتصف عام 2020 لم يعُد هناك سوى 22000 جندي أمريكي في مناطق الحرب الجهادية»[60]. ويثير تحذيره تساؤلًا حول ما يمكن اعتبارها 'مناطق حرب جهادية' بالضبط؟ هل هي أي مكانٍ توجد فيه نسبة كبيرة من المسلمين؟ وعلى الجانب الآخر، ظهرت تعليقات بعض الخبراء تحت شعار «ضبط النفس»، وهو ما يشدِّد عليه معهد كوينسي الجديد. فهناك دعوات للمسؤولين الأمريكيين «للسعي إلى تحقيق أهداف أكثر جدوى» في السياسة الخارجية من أجل تجنُّب الكوارث التي تجلبها «الحروب التي لا نهاية لها في أماكن ليس لها قيمة استراتيجية». وتدعو وجهة النظر هذه -التي عبَّر عنها علماء مثل ستيفن والت- إلى «زيادة الدبلوماسية وتقليل العنف»، وتحقيق المزيد من التبادلية بين الولايات المتحدة والدول الأخرى، مع تعزيز ذلك بممارسة الولايات المتحدة لما تدعو إليه فيما يتعلَّق بالديمقراطية وحقوق الإنسان[61]. وينصح معهد كوينسي إدارة بايدن القادمة بتنفيذ «تخفيض» دراماتيكي للقوات الأمريكية في الشرق الأوسط، وإعادة تفعيل خطة العمل الشاملة المشتركة في إيران، وخفض مبيعات الأسلحة إلى المملكة العربية السعودية ودول الخليج، وإعادة توجيه السياسة الخارجية الأمريكية نحو «المشاركة [في صورة] تعاون سلمي بين الشعوب - وليس حربًا أو هيمنة»[62].

وبالنظر إلى الماضي، فإن السؤال هو: أين يبدو موقع أوباما في هذا النقاش؟ يبدو أنه يحاول الجمع بين الاتجاهين. فمن ناحية، يوضح أنه ليس انعزاليًّا ولا مسالمًا ساذجًا. وإنما قام -بوصفه رئيسًا- بتوجيه القوات الأمريكية والإنفاق العسكري وهجمات الطائرات المسيرة إلى الأماكن والمهام التي رآها تتطلَّب الانتباه العاجل: أفغانستان وباكستان كمنطقة لمطاردة الإرهابيين، ومطاردة بن لادن، وما إلى ذلك. واستمرت الزيادة في حصيلة القتلى على يد الولايات المتحدة في المنطقة تحت رئاسته. لقد كانت الحرب «الصحيحة» في أفغانستان هي الحرب التي أعطى لها الأولوية على العراق (في البداية)، ولكن استمرَّ الوجود العسكري الأمريكي هناك على نحو مضجر في ما أصبحت أطول حرب في تاريخ الولايات المتحدة. لا يمكن القول بحسن نيَّة أن أوباما جرَّد السياسة الخارجية الأمريكية من النزعة العسكرية بأي وسيلة، أو أنه قلَّل من تدخلات الولايات المتحدة الهائلة والمدمرة في العالم العربي، سواء بالفعل أو التقاعس عنه، أو بالقيادة أو غيابها.

إذن، لقد اتضح أن المعتقد السائد صحيحٌ بالفعل ولو جزئيًّا. حيث لم تتغيَّر هيمنة الولايات المتحدة في شؤون الشرق الأوسط في ظل إدارة ترامب، وهو ما شجبه الكثيرون، ومن غير المرجَّح أيضًا أن تحيد كثيرًا عن مسارها في ظل قيادة السيد بايدن «اللطيف»، المعروف عنه تعاطفه مع الصهيونية. إذا كان هناك ما يخبرنا به الربيع العربي والتطبيع الذي هو جزء من الثورة المضادة، فهو أن فلسطين لا تزال محور سياسات الشرق الأوسط. والاعتراف بهذه الديناميكية وفهمها، سواء بالنظر إلى الماضي أو عند تفسير الأحداث الجارية، يمثل على الأقل طريقةً لممارسة السلطة وإن كانت بسيطةً. لقد كتب أوباما، ويمكن للعرب إلى جانب غيرهم أن يقرأوا، أو أن 'يعيدوا القراءة'.

المراجع

1- Constance Grady, "What the Obamas' $65 Million Book Advance Actually Means." Vox, 2 March 2017, http://bit.ly/3aFh1eZ, accessed 26 December 2020.
2- Barack Obama. 2020. A Promised Land. New York: Crown Books, Kindle Edition.
3- Maanvi Singh, "Joe Biden Says, 'This is Not a Third Obama Term' in First Sit-Down Interview," The Guardian, 25 Novembe r2020, https://www.theguardian.com/us-news/2020/nov/24/joe-biden-nbc-interview-presidency, accessed 26 December 2020.
4- A Promised Land, p. 311-313; see for instance pp. 98-99
5- For instance, Ibid, p. 644
6- For instance, pp. 352-353
7- For instance, pp. 155-6; p. 452; p. 652
8- Pp. 583-4
9- Pp. 694-5
10- For a glimpse into the controversy surrounding the factual accuracy of the Oscar-winning film, see for instance: Graham Allison, " 'Zero Dark Thirty' Has the Facts Wrong--and that's a Problem, Not Just for the Oscars," Christian Science Monitor, 22 February 2013, http://bit.ly/3mQF1xS, accessed 26 December 2020.
11- Pp. 323-4
12- Pp. 153-4
13- Pp. 541-4
14- Pp. 439-40
15- Pp. 671-76
16- Pp. 120-21; 140-150
17- Pp. 581-588
18- Pp. 308-9
19- Pp. 370-1
20- Pp. 466-7
21- Pp. 475-6
22- Pp. 622-3
23- Pp. 12-13
24- Pp. 403-4
25- For instance, see Christine Sylvester. 2014. "TerrorWars: Boston, Iraq." *Critical Studies on Terrorism*. 7(1): 11-23.
26- BBC News. "UN Criticises Trump's Pardons for Blackwater Guards Jailed over Iraq Killings." 24 December 2020. https://www.bbc.com/news/world-us-canada-55424397, accessed 27 December 2020.
27- Pp. 82-3
28- Pp. 666-7
29- Jo Becker and Scott Shane. "Secret 'Kill List' Proves a Test of Obama's Principles and Will." *The New York Times*, 29 May 2012. https://www.nytimes.com/2012/05/29/world/obamas-leadership-in-war-on-al-qaeda.html, accessed 27 December 2020.
30- Micah Zenko. "Obama's Final Drone Strike Data." Council on Foreign Relations, 20 January 2017, https://www.cfr.org/blog/obamas-final-drone-strike-data, accessed 27 Dec. 2020.
31- Neta C. Crawford. 2018. "Human Cost of the Post-9/11 Wars: Lethality and the Need for Transparency." Costs of War, https://bit.ly/37OJg8Y, accessed 27 December 2020.
32- Pp. 352-3

33- PBS. “Full Speech: President Obama’s 2016 State of the Union Address.” 12 January 2016, https://www.pbs.org/newshour/show/full-speech-president-obamas-2016-state-of-the-union-address, accessed 27 December 2020.
34- Pp. 636-7
35- Ibid
36- Pp. 644-6
37- 647-8
38- Pp. 637-8
39- Pp. 649-50
40- Pp. 642-3
41- 643-4
42- Pp. 649-50
43- Pp. 485-6
44- Pp. 86-87
45- Pp. 71-2
46- Pp. 662-3
47- Pp. 634-6
48- 627-8
49- 628-9
50- P. 628
51- Angela Y. Davis. 2016. *Freedom is a Constant Struggle: Ferguson, Palestine, and the Foundations of a Movement*. Chicago: Haymarket Books.
52- Niraj Chokshi. “Angela Davis Says She’s ‘Stunned’ After Award is Revoked Over Her Views on Israel.” The New York Times, 8 January 2019, https://www.nytimes.com/2019/01/08/us/angela-davis-israel-civil-rights-institute.html, accessed 27 Dec. 2020.
53- Pp. 478-80
54- The White House. “Remarks by the President at Cairo University, 6-04-09,” 4 June 2009, https://obamawhitehouse.archives.gov/the-press-office/remarks-president-cairo-university-6-04-09, accessed 27 December 2020.
55- For instance, p. 114-5
56- Pp. 632-3
57- Pp. 628-9
58- Pp. 648-9
59- Leon Pannetta. 2020. “Foreward: Defending Forward: Securing America by Projecting Military Power Abroad.” Foundation for Defense of Democracies, 15 December 2020, https://www.fdd.org/analysis/2020/12/15/defending-forward/, accessed 20 Dec. 2020.
60- Thomas Joscelyn, “The Jihadist Threat Persists”, Foundation for Defense of Democracies, 15 Dec. 2020, https://www.fdd.org/analysis/2020/12/15/defending-forward-the-jihadist-threat-persists/
61- Stephen Walt. “A Manifesto for Restrainers.” Dec. 4, 2019, https://quincyinst.org/2019/12/04/a-manifesto-for-restrainers/ [Accessed 17 December 2020]
62- Quincy Institute. “A New Direction: A Foreign Policy Playbook on Military Restraint for the Biden Team.” 3 December 2020, https://quincyinst.org/2020/12/03/a-new-direction-a-foreign-policy-playbook-on-military-restraint-for-the-biden-team/ [Accessed 17 December 2020]

عن المؤلف

العربي صديقي: زميل باحث أول في منتدى الشرق للأبحاث الاستراتيجيه، وهو أستاذ التحوُّل الديمقراطي العربي (الدمقرطة العربية) في جامعة قطر، ومؤلِّف كتاب «البحث عن الديمقراطية العربية: خطابات وخطابات مضادة» (مطبعة جامعة كولومبيا، 2004) وكتاب «إعادة التفكير في التحوُّل الديمقراطي العربي: انتخابات بدون ديمقراطية» (مطبعة جامعة أكسفورد، 2009). وكان في الآونة الأخيرة محررًا في دليل روتليدج لسياسة الشرق الأوسط: كتابات متعدِّدة التخصُّصات (2020). وهو أيضًا باحث رئيس في المشروع المموَّل من الصندوق القطري لرعاية البحث العلمي الذي يمتدُّ لأربع سنواتٍ بعنوان: «انتقالات الإسلام والديمقراطية:: «إحداث على التعلم الديمقراطي والهويات المدنية». أما اهتماماته البحثية فهي: التحوُّل الديمقراطي، الديمقراطية والإسلاموية، الربيع العربي، السياسة الجديدة والاحتجاج، والسياسة العربية بشكلٍ عامٍّ.

عن الشرق للأبحاث الاستراتيجية

هو مركز يقوم بأبحاث محايدة ودقيقة، هدفها تعزيز قيم المشاركة الديمقراطية، والمواطنة المستنيرة، والحوار المتبادل، والعدالة الاجتماعية.

Address: Istanbul Vizyon Park A1 Plaza Floor:6
No:68 Postal Code: 34197
Bahçelievler/ Istanbul / Turkey
Telephone: +902126031815
Fax: +902126031665
Email: info@sharqforum.org

research.sharqforum.org

SharqStrategic